قراءة أنموذجية في تفعيل الوظيفة التفاعلية للصمت عند كمال سعد أبو المعاطي

Typical reading in activating the interactive function
For silence according to Kamal Saad Abu Al-Maati

مهاجي فايزة*
جامعة جيلالي ليابس
mahadji22@gmail.com

تاريخ الوصول: 28-09-2021 تاريخ القبول: 01-05-2022 تاريخ النشر: 13-05-2022

ملخّص

تطرّق الباحث كمال سعد أبو المعاطي إلى دراسة "**الوظائف التفاعلية للصمت**" ذاكرا جملة العناصر حدّدها من خلال المفهوم الواسع للغة ،لفظية و غير لفظية ،بجعله الصمت أحد أنواع القسم الثاني فعرّف به لغة الاصطلاح،ثم الدور الذي يتحقّق من خلاله تفاعلية التواصل،موضّحا أنّ الصّمت يكون بديلا ناجحا في كثير من المواقف ،كالمصاحبات اللغوية مثل الإشارة وتعبيرات الوجه وحركات الجسد...إلخ.مركّزا على الشواهد اللغوية والمواقف المستنبطة من واقعنا الاجتماعي وتراثنا اللغوي العربي ،فكان بحثه قراءة أنموذجية في تفعيل الوظيفة التفاعلية للصمت.

الكلمات المفتاحية:الوظائف التفاعلية للصمت الكلمات –الاتصال غير اللفظي –الصمت الناطق التفاعلي

Abstract

The researcher Kamal Saad Abu Al-Maati touched on the study of the "interactive functions of silence", mentioning the number of elements that he defined through the broad concept of language, verbal and non-verbal, by making silence one of the types of the second section, where he defined the idiom, then the role through which the interaction of communication is achieved, explaining that Silence is a successful alternative in many situations, such as linguistic accompaniments such as gestures, facial expressions, body movements, etc.

Focusing on linguistic evidence and deduced attitudes from our social reality and our Arabic linguistic heritage, his research was an exemplary reading in activating the interactive function of silence.

Keywords: Interactive functions of silence -Nonverbal communication -Interactive speaking silence.

* مهاجي فايزة

مقدمة

لطالما مورست بلاغة الصّمت مذْ عرفت اللغة أداءها في المجتمع الإنساني ،ومذ كان لتأديتها تحاورا،ومذ بدأت تلك اللغة تنساب إلى العواطف انسيابا ،وأصبح لزاما حينها على متحدّثيها أنْ يوظّفوها لشتّى أغراضهم و شتّى أحوالهم .

من الطبيعي أنّ تلك البلاغة مورست بشكل وظيفي مع سيدنا موسى عليه السلام والرجل الصالح ﴿ قال فإن اتّبعتني فلا تسألني ،حتى أحدث لك منه ذكرا﴾ (**الكهف**)(الآية 70،سورة الكهف)،فمن هذا الشّكل الوظيفي في بلاغة الصمت عند " الخضر" (الرجل الصالح) تأسيس نسقي قرآني من كلام الله عزّ و جلّ و تأسيس بلاغي في وظيفة الصّمت لغرض التّواصل والتّحكّم في الوظيفة للبنية اللغوية عامة،وكذلك القصد من إنتاجها .

(الإخبار ،الأمر،السؤال) [1]

وربّما نجد أنفسنا في أشدّ ما نحن إليه راغبون في الوقوف على القصيدة التي تباشرنا بالنفع والفائدة جرّاء هذه البلاغة الموقوف إليها كثير من جهابذة الألفاظ في تاريخ تراثنا للقرون الأولى من العصر الهجري بداية من القرن الثالث والرابع الهجريين « واعلم أنّ الصّمت في موضعه ربّما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه وعند إصابة فرصته وذاك صمتك عند من يعلم أنّك لم تصمت عنه عنه عيّا و لا رهبة»[2].

اعتبارا من رأي الجاحظ هذا نفهم أنّ قضية الصّمت عنده هي قضية بلاغية تواصلية، و إنْ كانت المعرفة النحوية الخالصة تضطلع بالدور المركزي في حالات التخاطب العادية.

لنا مع "بيارفان دان هاف" "Pierre Vanden Heuve"،مسار لا يختلف كثيرا في موازاته مع قول "الجاحظ" عن رأيه في مجال الصّمت ،إذْ يقول "بيار" و هو في القرن العشرين :« إذا كان في الأدب مجال ناقص في الدّراسات المهمّة ،فهو إذن الصّمت الذي يظهر من حين إلى حين كقضية أساسية التي أهميتها معروفة لدى الجميع ....و أنّ البحث الأدبي قد أهمل الصمت»[3].

على هذا ألأساس،بات لزاما فتح باب الدراسة لهذه القضية البلاغية المطروحة في هذين الرأيين للناقدين أحدهما من التراث و الآخر من القرن العشرين في الدراسة الغربية الحديثة .

ذهب الأستاذ في قراءته للتفعيل الوظيفي للصمت إلى العديد من المنعرجات،إلّا أنّه وقف على اتّفاق أهل الاختصاص من علماء اللغة أنّ : «اللّغة بمعناها العام تعني كلّ وسيلة ممكنة تحقّق التّواصل والتّفاهم بين البشر ــ لفظية كانت تلك الوسيلة أو غير لفظية – فاللفظ لغة،وحركة اليد لغة،والإيماء بالرأس لغة،ونظرة العين لغة،وحركة الحاجبين لغة،والتعبيرات التي تظهر على صفحة الوجه من ابتسام أو تقطيب للجبين لغة ...إلخ.

إجمالا يمكن القول : «إنّ كلّ إشارة عرفية تؤدّي معنى تخدم الغرض نفسه الذي تسعى الألفاظ إلى تحقيقه تعدّ لغة »[4].

اللغة و وظيفة الاتّصال :

اهتدى الباحث "كمال سعد" إلى تعريفات العلماء حول أقسام اللغة،فللغة تعريفات عدّة في معجم مصطلحات الأدب، اتّفقت أو اختلفت وفقا لتعدّد وجهة نظر معرفيها و نظرتهم إلى طبيعتها وطبيعة الدور الذي تؤدّيه في بيئتها والوظيفة المنوطة بها .فقد عرفت من حيث كونها وسيلة اتّصال بأنها : كلّ وسيلة لتبادل المشاعر والأفكار كالإشارات والأصوات والألفاظ و هي بذلك ضربان: لغة طبيعية كبعض حركات الجسم والأصوات المبهمة،ولغة وضعية و هي مجموعة رموز أو إشارات أو ألفاظ متّفق عليها للتّعبير عن المشاعر و الأفكار[5].

بناء على هذا قسّم العلماء اللّغة إلى قسمين لكلّ منها تأثيره في إحداث التواصل والتفاهم .

-اللغة اللّفظية ،وتستعمل فيها الألفاظ وسيلة لتحقيق التواصل .

-اللغة غير اللفظية ،وهذه تعتمد كلّ ما ليس لفظا وسيلة لتحقيق التواصل.

خلال ذلك ترتّب للباحث وجود نوعين من التواصل :

تواصل لفظي،تواصل غير لفظي .

الإشكال الذي يمكن أنْ يطرح هو :ما مفهوم التواصل ؟ وممّ يتكوّن الحدث الاتّصالي؟ وكيف يتمّ ؟.

مفهوم التواصل: لغة

جرّ الباحث السياق إلى أنّ معنى التواصل في اللغة يمكن حول الاقتران و الاتصّال والصّلة والتّرابط والالتئام والجمع والإبلاغ والانتهاء والإعلام. وهو بذلك يتوافق دلاليا مع كلمة Communication في اللغة الإنجليزية التي تعني بناء علاقة بين مرسل و مستقبل عبر وسيلة تحقّق التّواصل والترابط وتبادل المعارف والمشاعر،والإخبار والإعلام[6].

مفهوم التواصل : اصطلاحا

عمد الباحث إلى تعريف مفهوم التواصل على أنه عملية انتقال المعلومات أو الأفكار أو العواطف والمشاعر بين الذوات والأفراد والجماعات ، وأنّه يتّخذ أنماطا .

أنماط التواصل :

دعاه تأمّله إلى الوقوف على أنّ حياتنا اليومية من تفاعل اجتماعي و التفاهم فيما بين النّاس، لتؤكّد على استعمال كلا المستويين اللّفظي و غير اللّفظي بشكل إنْ لم يكن متساويا فهو على الأقل متكامل .

فخلص إلى أنّ اللّغة اللّفظية هي الأصل في التّواصل الإنساني ،و في جانب آخر وجد أنّ اللّغة غير اللّفظية لا تنفكّ «توفّر للفرد وقتا وجهدا في اتّصاله الاجتماعي وذلك لبساطتها و سهولتها و عالميتها_فكثير من الإيماءات والإشارات وحركات الجسد و تعبيرات الوجه تكاد تكون مشتركة بين بنى البشر كلّهم جميعا على اختلاف في لغاتهم اللفظية و جنسياتهم، لكنّها لم تتطوّر مع الإنسان بالسرعة نفسها التي تطوّرت بها اللغة اللفظية؛ لأنها-كما نعلم- لغة مادية محسوسة خالية من التجريد والتعميم »[7].

ممّا ينوّه به ذكرا ما أشار إليه علماؤنا القدامى من اعتبار الإشارة عنصرا مهما في حديثهم عن حدّ الكلام حين عرّفوه بقولهم : «هو ما تحصل به الفائدة،سواء كان لفظا أو خطاً أو إشارة أو ما نطق به لسان الحال»[8].

ممّا يجري علما أنّ هذا التعريف يعكس ما جاء في ثقافتنا العربية وفكرنا اللّغوي العربي،ويكشف عن إدراك العرب للجانب الاجتماعي للّغة ،وأنّها ليست لفظا فقط بل لفظا و إشارة تحمل دلالة،وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في قوله تعالى : ﴿**قال ربُّ اجعلْ لي آية قال آتيكَ ألا تكلم النّاس ثلاثةَ أيام إلاّرمزا** ﴾ **(عمران)**،قال "أبو حيان التوحيدي" : الرمز : الإشارة باليد أو بالرأس أو بغيرهما،وأصله التحرّك ،يقال : ارتمز تحرّك،ومنه قيل للبحر : الراموز،و في قوله : (إلا رمزا) دلالة على أن الإشارة تتنزّل منزلة الكلام،وذلك موجود في كثير من السنة،وهو قول عامة الفقهاء كما أشار إلى أنّ من العلماء من أطلق الكلام في اللّغة على الإشارة الدّالة على ما في نفس المشير[9]. وبه قال "الزمخشري "،وذلك قوله : «لما أدّى مؤدي الكلام،وفُهم منه ما يفهم منه ،سمي كلاما»[10].

مما يذكره "الجاحظ" أنّ جميع أصناف الدّلالات على المعاني من لفظ و غير لفظ خمسة أشياء لا تنقص و لا تزيد : أوّلها اللّفظ ثم الإشارة ثم العقد ،ثم الخط ثم الحال التي تسمّى نصبة،موضحا أن النصبة هي الحال الدالة،كما أوضح أنّ الإشارة واللفظ شريكان،«فنعم العون هي له ،ونعم الترجمان هي عنه،وما أكثر ما تنوب عن اللفظ،وما تعني عن الخط... ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ،ولجهلوا هذا الباب البتّة»[11].

خصائص الاتصال غير اللفظي: أشار الأستاذ إلى عدم الغوص في أهم خصائص الاتّصال غير اللفظي إلاّ ما ذهبت إليه "سامية جابر " في قولها أنّه لا يمكن تحاشيه أو الهروب منه، فعندما يتوقف المرء عن الكلام لا ينقطع الاتصال؛وذلك أنّ علاقاتنا الاجتماعية لا تعتمد على اللغة اللفظية وحدها، بل تستمدّ مقوماتها كذلك ممّا نلاحظه على وجوه النّاس من تعبيرات مختلفة تفصح عن أحوالهم العاطفية،وكذا ما ندركه من إشارات اليدين و إيماء الرأس...إلخ،وقد تجتمع هذه الأمور جميعا حين يخاطب الناس بعضهم بعضا،وقد ذكرت "سامية جابر" أنّ من مزايا الاتصال غير اللّفظي:

أنّه يعبّر عن معلومات وجدانية في مقابل الاتّصال اللّفظي الّذي يعبّر عن معلومات تتّصل بالمضمون ،إذْ هو قادر على إيصال الحبّ والكره و الاهتمام والثقة والدهشة والرضا[12]

من هنا يأتي حديثنا عن الصمت الذي يمثّل واحدا من أهمّ وسائل التواصل غير اللّفظي .

الصمت لغة:

صمَتَ يصْمُتُ و صُمْتاً، الأوّل بفتح فسكون متّفق عليه ،والثاني بضمّ فسكون و نقول : صمت يصمُت،صمتا و صُمُوتا و صُماتا،فهو صامت،صمت الرجل : سكت و لم ينطق،وخرج عن صمته: تكلّم،ونطق. قال تعالى :﴿ **سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون**﴾ **(الأعراف)**.

وأَصْمَتَ: أطال السكوت،والتّصْميتُ: التّسْكيت، والتّصميت أيضا :السكوت،ورجل صِمّيت أيْ سِكّيت[13]

- من الكلمات الدّالة على "صمْت" اسم في اللغة العربية: إغضاء ،إطْراق ،سُكوت سُكون،وُجوم .
- من الكلمات الدّالة على "صَمَت"(فعل):بَكَم، بَكِمَ، تكَتَّم،خَرَس،سكَت،كَظَم،وجَم،وجِم.

رأى الأستاذ أنّ الصّمت يختلف في دلالته و استعماله عن بعض هذه المفردات إذْ يعني في عمومه عدم الحدث أمّا الإغضاء وهو حركة الطّرف فهو فعل جسدي لعضو من أعضاء الجسم. جاء في الصحاح: الإغضاء: إدناء الجفون،وفي لسان العرب: غَضَوْتُ على الشيء وعلى القذى ، وأغضيت: سكتُّ. وكذلك الإطراق الذي يعدّ تعبيرا جسديا يؤَّدى بحركة من الرأس تكون بها على هيئة معيّنة ومعروفة،وهو يعني انصرافا عن الفعل الكلامي إلى فصل غير كلامي ،كما يعدُّ الوجوم وهو السكوت على غيظ و الإمساك عن الكلام لسبب الحزن صورة من صور التعبير الجسدي يؤدى بالوجه، ولا يجمع لهذه المفردات بالصّمت إلّا ما يصاحبها من السكوت وعدم الكلام

الصمت الناطق التفاعلي

وذكر أنّ من الإمكان أن نتّفق على أنّ الصّمت وإنْ كان عدما بيْد أنّه ليس مُظلما فهو إيجاب له وظائف ودلالات،فصمتنا شيء آخر غير العيّ والحُبسة ،والخرس والحَظلْ،وهي جميعا أشياء لدرجات وأنواع من الصّمت السلبي ،يهتم بها الأطباء وعلماء النفس قال "ابن الحلاج"[14]

والصّمت أحسن بالفتى مالم يكن عِيٌّ يشِينُه.

قال مخرز بن علقمة:

صموتا في المجالس غير عَيٍّ جديرا حين ينطق بالصواب[15]

فصمت العيّ شكل من أشكال العجز والمرض يصيب الإنسان فيجعله غير قادر على الكلام و الإفصاح.

أمّا الصّمت الإيجابي الذي نقصده فهو "صمت ناطق" يحمل وظيفة تفاعلية،ولا ينتهي به الحدث الاتّصالي؛بل ربّما حمل في طيّاته رسائل غير لفظية تفوق أحيانا في قوّتها أبلغ الكلمات.ولذا فهو فنٌ لا يدركه إلاّ البلغاء والحكماء،روى"أنس بن مالك" عن النبي صلى الله عليه و سلم ،أنّه قال : "الصمت حكمة و قليل فاعلة " **(الراوي)**

قال أبو العتاهية[16] :

إذا كنت عن أن تُحسنَ الصَّمت عاجزا
فأنت عن الإبلاغ في القول أعجزُ
يخوض أُناس في المقال ليوجزوا
وللصمت عن بعض المقالات أوجزُ
الصمت التفاعلي في القرآن الكريم

وأوضح الأستاذ من إشارة القرآن الكريم إلى هذا الجانب الإيجابي للصّمت أنّ آياته اتّخذت نطاقا واسعا ،حيث كشف عن جانبه التفاعلي ،وذلك في قوله تعالى : ﴿فَكُلِي واشربي وقَرّي عَيْناً فَإمّا تَرَيّن منَ البشر أحداً فقولي إني نذَرْتُ للرَّحمن صوماً فلنْ أُكلِّمَ اليوم إنْسِيّاً﴾ (**مريم**).

في هذا ذكر "ابن كثير":"فإمّا ترينَّ من البشر أحداً" أيْ مهما رأيت من أحد "فقولي : إنّي نَذَرْتُ للرّحمن صوما فلنْ أكلّم اليوم إنْسياً... قال "أنس بن مالك" في قوله: "إنّي نذرتُ للرّحمن صوما" " قال صمتاً ،وكذا قالّ "ابن عباس" و"الضحاك" و في رواية عن "أنس": صوما وصمتا، وكذا قال "قتادة" و غيرهما،والمراد كانوا إذا صاموا في شريعتهم يَحرُم عليهم الطعام والكلام،نصَّ على ذلك "السُّدِّيُّ" و "قتادة" و"عبد الرحمن بن زيد".و قال عبد الرحمن يزيد لما قال "عيسى" ل"مريم" "لا تحزني" قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي لا ذات زوج و لا مملوكة؟! أيْ شيء عذْري عند الناس ؟! يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا ،قال لها "عيسى": أنا أكفيك الكلام "فإمّا تَرِينَّ من البشر أحدا فقولي إنّي نذَرْتُ للرّحمن صوما فلنْ أُكلِّمُ اليومَ إنسيّا" قال هذا كلّه من كلام عيسى لأمِّه وكذا قال وهب[17]

الصمت التفاعلي في الحديث النبوي:

لم يغفل الأستاذ الباحث تتبّعه للأحاديث النبويّة التي ستكشف من عدد غير قليل من المواقف التي تمّ فيها توظيف الصّمت والاستفادة من دلالته مما يؤكّد وظيفته التفاعلية ، ويزيد من قناعتنا بأنّه وسيلة فاعلة في بناء الحدث الاتّصالي و تواصله ليحقّق واحدة من وظائف اللّغة أو أكثر، فمن ذلك مثلا ما روي :

- عن "أنس بن مالك "أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خُطبَ بعض بذاته جلس إلى الخِذْر فقال : «إنّ فلانا يخطب فلانة،فإن هي سكتت كان سكوتها رضاها وإنْ هي كرهت طعنت في الحجاب فكان ذلك منها كراهية» (**الهتيمي**).
- عن عبد الله بن عباس أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«الأَيِّمُ أولى بنفسها من وليِّها والبِكر تستأمر في نفسها قيل يا رسول الله إنّ البكر تستحي أن تتكلّم قال :إذْنُها سُكُوتُها» (**ماجة**).
- عن أُبَيّ بن كعب أنّه جاء إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال : «يارسول الله عملت الليلة عملا ،قال: ما هو ؟! قال نسوة معي في الدار قلن إنّك تقرأ ولا نقرأ فصلِّ بنا فصلّيتُ ثمانيا والوتر،قال : فسكت –رسول الله صلى عليه وسلم– قال: فرأينا أن سكوته رضا»[18]
- جاء العباسي إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– و هو مُغْضَب،«فقال : ما شأنك ؟ فقال : يا رسول الله ،إنّا لنخرج فنرى قريشا تتحدّث ،فإذا رأونا سكتوا،فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والذي نفسي بيده لا يدخل قَلبَ امرئٍ الإيمان حتّى يحبّكم الله و لقرابني »[19].

وقال "زيد بن شريك ": كُنّاَ عند "حذيفة" فقال رجل : لو أدركت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ،قاتلت معه و أبْنيت فقال حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ليلة الأحزاب. وأخذتنا ريح شديدة وقَرٌّ فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ألا رجل يأتيني بخير القوم ،جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا،فلم يجبْه منّا أحد . ثم قال: ألا برجل يأتينا بخبر القوم ،جعله الله معي يوم القيامة ؟فسكتنا،فلم يُجبْه منا أحد،ثم قال : ألا برجل يأتينا بخبر القوم ،جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا،فلم يجبه منّا أحد ،فقال : قمْ "يا حذيفة" فأْتِنا بخبر القوم،فلم أجد بُدّا،إذْ دعاني باسمي،أناأَقُومَ،قال ،إذهب،فأتني بخبر القوم ولا تُذعرهم عليّ..» (**الجاحج**)

فذكر الأستاذ أمثلة حيّة، فيها أنْ يلجأ الناس إلى الصّمت،يتحصّنون به في بعض المواقف، خوفا من سحر اللغة الملفوظة وقدرتها على الكشف والفضح،أو ربّما لعجز تلك اللغة أو عجز مستخدميها عن التّعبير الصحيح عن الموقف ،قال الشاعر: [20]

ما كلُّ نُطقٍ له جوابُ

جواب ما يُكرهُ الصُّموتُ

الصمت التفاعلي في الشعر العربي:

ذكر أنّ كثير من الشعراء يذهبون إلى مسألة الوظيفة التفاعلية للصمت،وأنّه قد يغني عن الكلام في مواقف كثيرة،بل ربّما فاق الكلام في التعبير عن بعض المواقف ، قال أبو جعفر القرشي :

واجعل الصمت إن عَيِيت جوابا

رُبَّ قول جوابه في السكوتِ[21]

قال المتنبي

وفي النَّفس حاجات وفيك فطانةً

سكوتي بيانٌ عندها و خطابُ[31]

وقال آخر

أَوْلَيْتُه منِّي السكوتَ وربّما

كان السكوتُ عن الجوابِ جوابا[22]

وبالتالي إذن نجد الصمت قد يكون لغة بديلة تشي بحاجات النفوس و مطامعها،وتعبرُ عن مواقف وأحاسيسَ قد تعجزُ اللغة اللفظية عن إبلاغها أو الوفاء بها .

وذكر كذلك أنّ الأصدقاء والمحبين قد يصمتون عندما يلتقون فلا يجدون ما يقولونه ويكتفون بالصّمت الذي يعكس أعمق المشاعر الإنسانية وأصدقها،وربّما كان الصّمت محفّزا لهم لمزيد من التواصل عبر وسائل اللغة الأخرى لفظية كانت أو غير لفظية،قال الشاعر "جورج جرداق"[23]

سهرُ الشّوْقِ في العيون الجميلة

حلمٌ آثر الهوى أن يطيله

وحديث في الحُبِّ إن لم نقلْه

أوشك الصّمتُ حولنا أن يقوله

الصمت التفاعلي و حياتنا الاجتماعية:

أشار الأستاذ إلى بعض اللغويين تناولوا مواقف تخصّ توظيف الصّمت في حياتنا الاجتماعية،وكان من أبرزها :

صمت الشهود في أثناء التحقيق القضائي ،وصمت الكلام في الفصل ،وصمت الأستاذ للسيطرة على الطلّاب،وصمت الطلّاب لإعلان غضبهم أو تمرّدهم .

رأى كذلك أنّ الصّمت يمكن أن يوظّف في كثير من المجتمعات للتخلّص من بعض المواقف المحرجة أو لدفع الضرر عنها[24]

لاحظ أن أحد علماء الاجتماع أشار إلى وظائف أخرى، منها :

الصّمت المعبّر عن الوقار أو التّبجيل أو التأمّل،وصمت الملل الذي يعبّر عن الانسحاب من موقف أو تقييم سلبيّ لما يجري ،وصمت الأصدقاء والمحبّين عندما يلتقون فلا يجدون ما يقولونه ويكتفون بالصمت،والصمت عند الغضب أو الإحباط أو الحزن[25]

وجد في كثير أنّ الصّمت يوظّف بطرق مختلفة في التفاوض الاجتماعي والسياسي،فهناك يتّخذه حجابا وستارا يتوارى خلفه حتى لا يكشف أحدٌ نقاط ضعفه،وهناك من يمارسه بوعي و حكمة تكشف عن فهم عميق لموقف الآخر و يغتنمها فرصة لدراسة موقفه،أو للتفكير فيما يودّ أن يطرحه من الأفكار .

وقد يكون صمتا متكلّفا يحملق صاحبه بعينيه في فضاء المكان أو سقف القاعة،وقد يهزّ رأسه في إعجاب مصطنع يترك لدى الآخرين انطباعا سلبيا ،لذا يجب على المفاوض أنْ يكون صمته وإنصاته فعّالا واعيا يخدم العملية التفاوضية[26]

يستنتج مما سبق أنّ الصّمت يعدّ كلاما أو هو كالكلام،إذْ يقوم ببعض وظائفه ،وقد يخضع مثله لقواعد يحدّدها العرف في كل مجتمع ما .

الصمت التفاعلي وعلم اللغة الاجتماعي:

استنتج الأستاذ مما ذكر آنفا أنّ الصّمت قد حظي بنصيب من العناية في تراثنا الأدبي وفكرنا اللّغوي العربي ،وأنّه جاء ليدلّ على ما يناقض النطق أو الكلام كما أنّه شغل حيّزا من اهتمام اللّغويين والبلاغيين العرب وأنّهم قد تنبّهوا إلى شيء من دلالته البلاغية ودعوا إليه معتبرين إياه أحد صنوف البلاغة وذلك قولهم :«البلاغة اسم جامع" لمعان تجري في وجوه كثيرة،منها ما يكون في السّكوت ومنها ما يكون في الاستماع ...».

وجد أنّ "الجاحظ" قد تعرّض لمعنى الصّمت عند حديثه عن النِّصبة ،فاعتبرها «الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد. ..فالصامت ناطق من جهة الدلالة ...ومتى دلّ الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتا وأشار إليه وإن كان ساكتا»[27] وذهب "الجرجاني " في باب الحذف إلى أنّ «ترك الذكر أفصح من الذكر الصمت عن الإفادة أزيد للإفادة،و تجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبنْ»[28] وكذلك في قول آخر:

ولاحظ أنّ كثرة هذه الإشارات التي رآها مبثوثة في كتب التراث اللّغوي والأدبي لدى علمائنا المتقدّمين ،تمثّل بذورا وجذورا لعلم اللّغة الاجتماعي في فكرنا اللّغوي ،إلّا أنّ القائلين بها لم يعوا الأبعاد الحقيقية للصّمت ودوره التفاعلي في التواصل وإثراء الحدث الكلامي ،بل ظلّ عندهم مجرّد دليل على السكوت وانتهاء الكلام فحسب .

إلّا أنّ في السنوات الأخيرة اهتمّ بعض الباحثين بدراسة الصمت «كظاهرة من ظواهر التفاعل الاجتماعي، إذْ تبيّن لهم أنّ له وظائف حوارية بالغة التعقيد عبر الثقافات و في نطاق الثقافة الواحدة. [29] كما أبدى علماء الأنثروبولوجيا عناية كبيرة بمختلف جوانبه ،فدرسوا أنماط الكلام والصّمت و كيف تختلف باختلاف الثقافات»[30]

تصوّر الباحث أنّ هذا الاهتمام قد ازداد مع تعاظم دور علم اللغة الاجتماعي الذي ذهب إلى أنّه لا يمكن بحال اختزال اللّغة في مجرد وصفها الشكلي الثابت،وأنّه لا يمكن فهمها فهما حقيقيا تاما إلّا في سياق السلوك الاجتماعي للجماعة اللّغوية،ولذا فقد جعل من أولوياته: «البحث عن الكيفيات التي تتفاعل بها اللّغة مع المجتمع والنّظر في التغيّرات التي تصيب بنية اللّغة استجابة لوظائفها الاجتماعية المختلفة»[31].

من باب الأهمية التّطبيقية لهذه الفكرة أنّ التركيب الاجتماعي يؤثّر في شكل التركيب اللّغوي،وأنّ هناك طرائق خاصة للتّكلم و اختيار الموضوعات والكلمات والتراكيب تحدّدها متطلبات اجتماعية معيّنة[32].

استدلّ على أنّ هذا المنحى من الدّراسة اللّغوية يعود إلى تطوّر اللّسانيات:منهجاو ميدانا،وذلك حين انتقلت من «دراسة الجملة كمنجز بالإمكان إلى دراسة العبارة كمنجز بالفعل،وحين انتقلت من دائرة التركيب في النّحو إلى دائرة التركيب في بناء النصّ،وحين اتّسعت في ميادينها فغطت ما كان يعدّ من خصوصيات غيرها ولامست العلوم الاجتماعية والفلسفية وعلم النفس والأثروبولوجيا والإثنولوجيا»[33]

واستند الباحث إلى أنّ هذا الضرب من البحث خلال ما ذهب إليه "فرانسوا آرمينجوا" أن اللغة يمكن أن ينظر إليها بوصفها ظاهرة استدلالية وايصالية و اجتماعية في الوقت نفسه[34].

«فاللّغة أداة نقل الأفكار بين المتكلّمين تحقيقا للشرط الاجتماعي الإنساني وهو ما يسمى عند علماء اللّغة الإيصال، ويمثّل الإيصال فيها وظيفة اللّغة »[35]

ذكر من خلال ملاحظاته عن هذا الإيصال أنّه لا يتمّ عن طريق اللّغة المنطوقة فحسب و إن كانت هي الوسيلة المثلى لتحقيقه ولكنّه يتمّ بوسائل أخرى غير لفظية، حمّلها الإنسان دلالات خاصّة، و أكسبها قدرة على المساهمة في تحقيق التواصل ، بل ربّما اعتمد عليها وحدها في بعض المواقف كتغيرات الوجه والصمت التفاعلي .

نتيجة لكل ما سبق نرى أنّ علم اللّغة الاجتماعي قد أدرك أهمية "الصّمت" قد كشفت عن جانبه الاجتماعي ودوره في بناء الحدث الاتّصالي،حيث ردّ إليه الاعتبار بعدما صادف من إهمال في علم اللغة البنيوي الذي عرّفه تعريفا سلبيا بأن "غياب الكلام" وحصره في كونه علامة مميّزة لبداية الكلام أو نهايته .

يخلص بنا المطاف إلى أن علاقاتنا الاجتماعية لا تعتمد على اللّغة اللّفظية وحدها وأنّ الاتّصال غير اللّفظي مجال رحب يحمل من الرسائل ما يحفل بالعديد من الدلالات النثرية ذات المغزى. وأنّه ليس بوسعنا فهم الاتّصال الإنساني وممارسته على نحو فعّال ومؤثّر من دون النفاذ إلى عمق هذا العالم و اكتساب مهاراته،و قد عرفت كلّ الثقافات والحضارات هذا النوع من الاتّصال، وجسّدته في تراثها و أدبها و ثقافتها الشعبية .

وأخيرا خَلُص إلى أنّ ثقافتنا العربية نجدها أنّها لم تكن بمنآى من هذا ،فقد جاءت محمّلة بمخزون كبير من شواهد هذا الاتّصال غير اللفظي،كما أشار بعض علمائنا في إشارات كاشفة إلى بعض أسرار هذا النّوع من أنواع التواصل،وما جاء في هذا التّوضحة ما هو إلا غيض من فيض مما تنبّه له علماؤنا الأقدمون وكشف عنه بعض المحدثين .

الهوامش:

1 - نعيمة الزهري، تحليل الخطاب في نظرية النمو الوظيفي، منشورات الإختلاف، الرباط، ط1، 2014.، صفحة 13 ـ 14.

2 – الجاحظ، رسالة المعاش والمعاد (الأخلاق المحمودة والمذمومة)، تح: عبد السلام هارون، مكتبة خاني، القاهرة، صفحة 64.

3 – Pierre Van Den Heuve parole,mot,silence,librerie Jose corti,1985, p. 1985.

4 - محمد حسن، علم اللغة الإجتماعي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2009. صفحة 113).

5 – السيد علي شتا، علم الإجتماع اللغوي، مركز الإسكندرية، د ط، 1998، صفحة 199.

6 – جميل حمداوي ، سينيمائيات التواصل اللفظي والغير اللفظي، موقع مجلة طنجة الأدبية.

7 – محمد حسن، علم اللغة الإجتماعي، صفحة 113.

8 – إبن هشام النحوي، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ط8، د ت، صفحة 28 . 29).

9 – الزمخشري، الكشاف، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، لبنان، ط3، 2009.

10 – المرجع نفسه.

11 – الجاحظ، البيان والتبيين، تح: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، د ط، 2006، صفحة 57 . 58.

12 – سامية جابر، علم إجتماع الإتصال، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د ط، 2001، صفحة 121 . 122.

13 – إبن منظور ، لسان العرب، مادة: ص .م.ت، دار المعارف ، القاهرة، د ط، 2008.

14 – الجاحظ، البيان والتبيين، صفحة 1 . 29.

15 – (الجاحظ، البيان والتبيين، صفحة 1 . 29.

16 – أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، تح: درويش الجودي، المكتبة العصرية، بيروت، د ط، 2010. صفحة 7.

17 – إبن كثير، تفسير إبن كثير، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1999.

18 – أحمد بن حنبل الشيباني، مسند الإمام أحمد، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط2، 1999.

19 – المرجع نفسه.

20 – أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، صفحة 7.

21 – إبن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد بن عبيد، الصمت وآداب اللسان، تح: أبو إسحاق الحويني، د ط، 1410 هـ.

22 – إبن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د ط، 1978.

23 – (سعيد، 1998).

24 – محمد حسن، علم اللغة الإجتماعي، صفحة 117.

25 – سامية جابر، علم إجتماع الإتصال، صفحة 118 . 119).

26 – حسن وجبة، مقدمة في علم التفاوض الإجتماعي السياسي، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 1994، صفحة 169.

27 – الجاحظ، البيان والتبيين، صفحة 59.

28 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة نانجي، القاهرة، د ط، د ت.

29 – محمد حسن، علم اللغة الإجتماعي، صفحة 116.

30 – حسن وجبة، مقدمة في علم التفاوض الإجتماعي السياسي، صفحة 201).

31 – كمال بشير، دراسات في علم اللغة، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1973، صفحة 58.

32 – المرجع نفسه، صفحة 58).

33 – منذر العياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 1973، صفحة 58.

34 - المرجع نفسه، صفحة 141.

35 - المرجع نفسه، صفحة 58.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

- **المراجع باللغة العربية:**

- أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، تح: درويش الجودي، المكتبة العصرية، بيروت، د ط، 2010.
- أبو الهلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط2، د ت.
- أحمد بن حنبل الشيباني، مسند الإمام أحمد، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط2، 1999.
- أحمد بن راشد سعيد، فن الكلام، مدخل إلى الإتصال العام، دار جيل الشيخ، لبنان، د ط ، 1998.
- الراوي أنس بن مالك، المحدث: إبن عدي: الكامل في الضعفاء.
- إبن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد بن عبيد، الصمت وآداب اللسان، تح: أبو إسحاق الحويني، د ط، 1410 هـ.
- إبن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د ط، 1978.
- إبن كثير، تفسير إبن كثير، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1999.
- إبن منظور ، لسان العرب، مادة: ص .م.ت، دار المعارف ، القاهرة، د ط، 2008.
- إبن هشام النحوي، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ط8، د ت.
- الجاحظ، البيان والتبيين، تح: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، د ط، 2006.
- الجاحظ، رسالة المعاش والمعاد (الأخلاق المحمودة والمذمومة)، تح: عبد السلام هارون، مكتبة خاني، القاهرة.
- الحافظ محمد بن يزيد بن ماجة، سنن بن ماجة، 203 حديث رقم 1870، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، عمان، د ط، د ت.
- الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيتمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،تح: عبد الله الدرويش، د ط، دت.
- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417 هـ.
- الزمخشري، الكشاف، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، لبنان، ط3، 2009.
- السيد علي شتا، علم الإجتماع اللغوي، مركز الإسكندرية، د ط، 1998.
- جميل حمداوي ، سينيمائيات التواصل اللفظي والغير اللفظي، موقع مجلة طنجة الأدبية.
- حسن وجبة، مقدمة في علم التفاوض الإجتماعي السياسي، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 1994.
- سامية جابر، علم إجتماع الإتصال، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د ط، 2001.
- عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، مؤسسة هنداوي، القاهرة، د ط، 2014.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة نانجي، القاهرة، د ط، د ت.

- كمال بشير، دراسات في علم اللغة، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1973.
- محمد حسن، علم اللغة الإجتماعي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2009.
- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، الراوي: يزيد بن شريك، حديث رقم 1788، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب.
- منذر العياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 1973.
- نعيمة الزهري، تحليل الخطاب في نظرية النمو الوظيفي، منشورات الإختلاف، الرباط، ط1، 2014.

المراجع باللغة الفرنسية:

- Pierre Van Den Heuve parole,mot,silence,librerie Jose corti,1985
- texte Orignal : « S'ilya en littérature un domaine qui manque d'étude sérieuse c'est bien celui du silence qui apparait de plus en plus comme un problème fondamental dont l'importance est reconnu pour tous… la recherche littéraire a négligé le silence »